Route Educational & Social Science Journal

Volume 7 (1); January 2020

Artical History

Received	Accepted	Available Online
31.12.2019	21.01.2020	31.01..2020.

THE DICRIPTION OF THE CITY OF TRIPOLI UNDER FOREIGN OCCUPATION WRITTEN BY: LEON AND MARMWEL 1510-1551

Asma Ali JAFAR [1]

Abstract

This study focuses on trying to undo the unknown important aspect of the history of western Tripoli during the sixteenth century AD.As this period was the stage of foreigncommand of weak and rival states at the time, therefore Tripoli was occupied by Spain, France and Malta and also its happenstance with what is called the emergence of the OthmanianState on the political scene. This is to clarify that the information was itemized and analyzed according to the scientific needs and three key axes. Comparing the presentation of events and information to define the city and how it was at that time due to trusting two main sources: (Description of Africa, and the Book of Africa) from the book of explorers and pioneers known to Arab writers as (travel literature) and had a role in highlighting and describing the features of cities and regions they visited, and their reasons and intentions have varied during their orientation to these areas, whether in the scientific, religious, political, economic or social fields. Consequently, it could be said that the research dealt with a description of the city of Tripoli developingitspicture from several aspects and emphasized their historical features that the Spaniards and horsemen used, returned to strengthen themselves with them. It also pointed to some physicalmistakes and variations in some occasions trying to find correct information from local sources to prove it. Besides, it explained some phenomena with names local and traded among the people of the city and its effects still existnowadays.

Keywords: description, occupation, flight, backpacker.

[1] Lecturer. University of Misrata. .a.jafer@art.misuratau.edu.ly

وصف مدينة طرابلس تحت الاحتلال الأجنبي من كتابات ليون ومار مول 1510-1551م

أسماء علي جعفر: محاضر, جامعة مصراتة

ملّخص

يُركز هذا البحث على محاولة كشف الغموض عن جانب مهم من تاريخ طرابلس الغرب أثناء القرن السادس عشر الميلادي؛ لأن هذه الفترة مرحلة السيطرة الاستعمارية للدول الضعيفة والمتناحرة آنذاك, فكانت طرابلس تحت سيطرة الاحتلال الإسباني وفرسان مالطا, فضلاً عن تزامنها مع ظهور الدولة العثمانية على مسرح الأحداث السياسية , لتوضيح ذلك تم سرد المعلومات وتحليلها وفق ما تتطلبه الحاجة العلمية وفق ثلاث محاور رئيسة, وبشيء من المقارنة في عرض الأحداث والمعلومات لوصف المدينة كيف كانت أوضاعها آنذاك, وذلك بالاعتماد على مصدرين أساسيين هما: (وصف أفريقيا, وكتاب أفريقيا) من كتابات الرّحالة والمستكشفين التي كانت تُعرف عند الكُتاب العرب بـــ(أدب الرحلات) وكان لها دور في إبراز معالم المدن والأقاليم التي زاروها ووصفها, ولقد تنوعت أسبابهم ومقاصدهم أثناء توجههم لتلك المناطق سواء كان في المجال العلمي أو الديني أو السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي.

بناءً عليه تناول البحث وصفاً لمدينة طرابلس ووضع تصوراً لها من جوانب عدة, وأبرز معالمهما التاريخية التي استخدمها الأسبان والفرسان ورمموها واتخذوها مكاناً لتحصين أنفسهم بها, وأشار إلى بعض الأخطاء الجغرافية والتناقضات في بعض الأحداث واستقصى المعلومة الصحيحة من المصادر المحلية لإثباتها, وفسر بعض الظواهر ذات التسميات المحلية والمتداولة عند أهالي المدينة وآثارها مازالت موجودة ليومنا هذا.

الكلمات المفتاحية: وصف, الاحتلال, الرحلة, الرّحالة.

المقدمة:

شهد الشمال الإفريقي توافد أعداد من الرّحالة؛ لأنه ذو أثر مهم حضارياً وثقافياً, وعُدّ وجهة لهم وللمستكشفين, فضلاً على أنه ممراً ومعبراً حيوياً بين الشرق والغرب, فكان

له الأثر البالغ عليهم بتدوين مؤلفاتهم عليه, والمتتبع لتاريخه يجد مدينة طرابلس الغرب من المناطق المهمة فيه لما تتمتع به من خصائص طبيعية وجغرافية, جعلت منها ذات مكانة إستراتيجية على مرّ المراحل التاريخية, حيث ارتبط ذلك بازدهارها وتطلع الدول الأوروبية للسيطرة وبسط نفوذها عليها.

وهنا لابد من أن نوضح الأهمية العلمية تكمن في كتابات المعاصرين والرّحالة مصدراً رئيسًا من مصادر دراسة التاريخ لما فيه من تنوع للدراسات التاريخية, والقيام بتسجيل انطباعاتهم وشهاداتهم وملاحظاتهم عن المناطق التي زاروها, فضلاً لارتباط ذلك بعلم الجغرافيا, وانطلاقاً من ذلك يرجع اختيار موضوع الدراسة إلى ضرورة دراسة مثل هذه المواضيع لما يشوب هذه المرحلة من غموض, وقلة الدراسات المستقلة والمنفصلة عنه إلا في فترات متأخرة جداً لشح المعلومات؛ ولأن القرن السادس عشر لم يكتب عنه إلا قلة, واندثار بعض المؤلفات لعوامل طبيعية وسياسية وفُقد عدد منها.

ولتحقيق كل ذلك وضع هدف محدد وهو الوقوف على أن الاحتلال مصالحه تحتم عليه استخدام عدة أساليب تساهم في زيادة تطوره, من خلال هذا الهدف الإشكالية تطرح نفسها هنا: ما الأسباب التي كانت وراء وجود الرّحالة ومعاصري الاحتلال في طرابلس؟ إلى أي مدى ساهمت في إبراز تاريخ المدينة؟ لماذا هناك تناقض أحياناً في الأحداث؟ ما هي التغيرات التي طرأت على المدينة؟. التحديد الزماني مرحلة الاحتلال الأسباني وفرسان مالطا 1510-1551م, والمكاني مدينة طرابلس الغرب, لتتضح الرؤية هنا علينا معرفة بعض المفاهيم المتعلقة بالموضوع مثل:

وصف: فن من فنون الأدب يقوم على تشخيص الطبيعة وما فيها وتمثيلها.

بناءً عليه تم سرد المعلومات من عدة مصادر ومراجع نذكر إحداها : اتيوري روسي, طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا, تر: خليفة محمد التليسي, ط1 ط2, المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان, (طرابلس, 1969- 1985م) .

ووفقاً لذلك يتبلور الموضوع في محاور رئيسة حسب ما تتضمنه الحاجة العلمية في هذا الجانب, تتضح في الآتي: (تمهيد, تعريف الرحلة ودوافعها, أهم الرّحالة, وصف طرابلس: سياسياً, اقتصادياً, جغرافياً, عمرانياً) .

تمهيد:

ليبيا عبارة عن هضبة مُتسعة في القارة الأفريقية, ومظاهر سطحها تختلف عن بلدان المغرب العربي, نوضح هنا بأن مدينة طرابلس هي عاصمتها وأكبر مُدنها, تقع في الشمال الغربي لليبيا على رأس صخري مطل على البحر المتوسط مقابل الرأس الجنوبي لجزيرة صقلية, يحدها شرقاً تاجوراء, وغرباً جنزور, وجنوباً منطقة السواني, وشمالاً البحر المتوسط الذي تتميز بمناخه. وعند إلقاء نظرة حول تقسيم التضاريس للمنطقة تندرج تحت نطاق السهول الساحلية, والتي بعضها يقع ما بين الحدود التونسية في الغرب ورأس المسن غرب الخمس في الشرق يُعرف بسهل جفارة, والمنطقة الممتدة من رأس المسن في الغرب ومصراتة للشرق, وسهول سرت ما بين مصراتة في الغرب وبلدة الزويتينة في الشرق[1].

وبناءً على معطيات الموقع خضعت طرابلس خلال فترة دراسة هذا الموضوع إلى سيطرة واستيلاء الأسبان عليها منذ 1510-1551م التي حكموها ما يقارب من عشرينعاماً, وكانت هناك عدة أسباب شجعتهم على دخولها نذكر منها: أسباب دينية تتمثل في رغبتهم في القضاء على الدين الإسلامي, وملاحقة المسلمين, أسباب سياسية وعسكرية واقتصادية ضعف حكام طرابلس, الموقع الاستراتيجي لها لإقامة قواعد على الشمال الأفريقي ومزاحمة المدن الإيطالية, معرفتهم بالملاحة البحرية, تمتعها بنشاط تجاري ووجود أسواق مزدهرة [2].

كل ذلك كان بعد سقوط الأندلس في أيديهم وعرفت باسم حروب الاسترداد, وخلال الثلث الأول من القرن السادس عشر الميلادي اتجهت أنظارهم لبلدان الشمال الأفريقي فبدأ الاحتلال على عدة مرّاحل, وكانت خططتهم ترمي إلى ضرورة السيطرة على الموانئ الرئيسة في بجاية ووهران وطرابلس, تم ذلك بإرسال أول أسطول أسباني بقيادة دي كوردوفا الذي احتل وهران, في حين سار الأسطول بقيادة بيير نافارو باتجاه بجاية فأنزل جنوده 5يناير 1510م، إلا أنه بسبب انتشار مرض الطاعون وموت أعداد كبيرة من جنده, قرر المسير نحو طرابلس التي دُكت بالمدافع ودخولها في 25 يوليو 1510م[3], بعد أن انضم إليهم جنود ايطاليين وخاصة من صقلية, وبعض المالطيين واعتبارهم مرشدين ولمعرفتهم بتلك السواحل, نجحوا في السيطرة على القلعة أي

(1) عبدالعزيز طريح شرف, جغرافية ليبيا, ط2, منشأة المعارف, (الإسكندرية, 1971م), ص 9-14, 25, 31.

(2) حسن سليمان محمود, ليبيا بين الماضي والحاضر, مؤسسة سجل العرب, (القاهرة, 1962م), ص 158-165. لمزيد من الاطلاع يُنظر: شارل فيرو, الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي, نقله: محمد عبدالكريم الوافي, ط3, منشورات جامعة قاريونس, (بنغازي, 1994م), ص73-87.

(3) راسم رشدي, طرابلس الغرب في الماضي والحاضر, (طرابلس, 1953م), ص 86, 88. كذلك : أحمد بك النائب الأنصاري, نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان, تقديم: محمد زينهم عزب, دار الفرجاني, (طرابلس, د.ت), ص 37-43.

طرابلس فقط فكان نبأ احتلالها مفرحًا كثيراً للنصارى في أوروبا آنذاك [1], لقد قابلتهم مقاومة عنيفة من سكانها بعد فرارهم من طرابلس اللجوء إلى إحدى ضواحيها تاجوراء فكانت هي وغريان ومسلاتة قواعد للمقاومة, تجدر الإشارة هنا بأن مقاومة تلك المناطق, وتهديد القوات العثمانية ودعمها للأخوين عروج وخير الدين بربروسا اللذين شكلا خطراً يهدد وجود الأسبان في سواحل البحر المتوسط, فضلاً عن حروبها الخارجية في أوروبا, كل ذلك دعاها بأن تسلمها لفرقة جديدة تم طردها من جزيرة رودس تُعرف بفرسان مالطا [2] , خاضت على إثرها إسبانيا صراعاً طويلاً غُرف بالصراع البحري في مناطق مهمة تتمثل في المغرب الأقصى والجزائر وتونس وطرابلس واشتهر بمصطلح القراصنة من الجانبين الإسلامي بقيادة الأخوين مثلما ذكرنا, وقراصنة الأسبان , ومن تم التنازل عنها للفرسان. الذين أبقوا الوضع كما هو عليه مع تطورات سنتحدث عنها لاحقاً, وانتهى وجودهم بدخول العثمانيين بقيادة سنان باشا على رأس الأسطول في 8 أغسطس 1551م [3].

أولاً- تعريف الرحلة ودوافعها:

من المهم قبل الشروع في أي فقرة القيام بضبط المفاهيم والتعريفات الأساسية للموضوع التي يعالجها البحث حتى يسهل فهم المعنى الحقيقي, ومن هذا المنطلق وجب التعرف على الرحلة لغةً واصطلاحاً.

1-**الرحلة لغةً:** جاء معنى الرحلة في لسان العرب: الترحل , الارتحال أي الانتقال, الرحلةُ والرُّحلة والرّحلةُ, اسم الارتحال أي المسير, يُقال: دنت رحلتنا ورحل فلان وارتحل وترحل بمعنى, الرُحلة بالضم هي القوة والجودة أيضاً, الوجه الذي تأخذ فيه وتريده, تقول أنتم رُحلتي أي الذين أرتحل إليهم[4].

- **اصطلاحاً:** ((أن كل رحلة قد حققت الهدف لحساب الإنسان, ونبض الحياة المستمر على الأرض, وصحيح أيضاً أن الإنسان الذي كرس اجتهاده لإنجاز الرحلة لم ولن يُفرط أبداً في جني ثمرات الرحلة, والانتفاع بها,.....)) [5].

2- الدوافع:

(1) ايتوري روسي, طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا, تر: خليفة محمد التليسي, المنشأة للنشر والتوزيع والإعلان , ط1 ط2, (طرابلس, 1969-1985م), ص 15- 16, 27.

(2) حسن سليمان محمود , المرجع السابق, ص 161-169. كذلك: سمير عبدالرسول عبدالله العبيدي, طرابلس الغرب أثناء احتلال الأسبان وفرسان القديس يوحنا 1510-1551م, اطروحة دكتوراه غير منشورة, كلية الآداب, جامعة بغداد, 2003م.

(3) محمد مصطفى بازامة, ليبيا في عشرين سنة من حكم الإسبان 1510-1530م, منشورات مكتبة الفرجاني, (طرابلس, 1965م), ص 17-18, 20.

(3) بن منظور, لسان العرب, دار صادر,(بيروت 1414هـ 1993م), مج 1, ص 1610-1611.

(5) فؤاد قنديل, أدب الرحلة في التراث العربي, الدار العربية للكتاب,(القاهرة, 2002م), ص 22.

بعد ما تم التعرف على الرحلة والتي تقوم على التأمل والاتعاظ من آثار الأمم البائدة والباقية, نستدل منها بأن الشعوب كانت في حال ترحال وتنقل في سبيل البحث عن استقرار, التي تختلف من فترة لأخرى وفق ظروف تمر بها , وهناك عدة أسباب أثرت فيها سواء دينية أو سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية, نبرز أهمها:

- **الدافع الديني والعلمي:** يتمثل في زيارة الأماكن المقدسة, التي تتطلب سلك مسالك لأجل أداء فريضة الحج؛ لذا تستدعي الحاجة معرفة محطات القوافل في طريقهم إلى مكة وهنا نخصص هذا الدافع للرحالة العرب والمسلمين, نلاحظ بأن أغلب كتاباتهم تُعرف باسم ـ المسالك والممالك ـ [1] , ننوه هنا بأن مدينة طرابلس كانت مركزاً وسيطاً ومحطةً رئيسة في طريق الحجاج بين المغرب الأقصى ومصر, لراحة القوافل بها وشدّ الرحال من جديد ومواصلة السير، فالرحلات الحجازية المغربية مرّت بها في العصر الحديث [2] , أما علمياً من أكثر الأسباب التي ساهمت في ازدهار الحركة العلمية بين الشرق والغرب لأجل طلب العلم في مختلف المجالات [3].
- **الدافع الاقتصادي والثقافي:** تُعد التجارة سبباً في التنقل والترحال سواء لأجل استجلاب منتجات أو بيعها, فضلاً عن فتح فرص عمل تتمثل في فتح أسواق وغيرها [4],الرغبة في معرفة الحضارات المختلفة لأنها تصور جوانب مهمة عن حياة الشعوب وطباعهم وعاداتهم, وتقدم وثائق حيّة على مختلف العصور [5].
- **الدافع السياسي والصحي:** بعض الرحلات كانت لأجل العلاج والنقاهة, وقد يكون ذلك سبباً في هروب كثيرين من الأمراض والأوبئة التي كانت تجتاح مناطقهم, في حين الأسباب السياسية نجدها في رحلات تتمثل في إرسال الأباطرة والملوك والأمراء وفوداً ورسلاً سواء لتوثيق العلاقات أو تمهيد لعقد اتفاقيات وفض النزاعات(6), وأحياناً عبارة عن استكشاف مناطق للسيطرة عليها مثل مرحلة الكشف الجغرافي الذي قامت به البرتغال بعد انتصاراتها في المحيط الأطلسي في القرن الخامس عشر الميلادي, التي اجتاحت دولاً لمعرفة مسالكها براً وبحراً لتنظيم حركتها التجارية والإدارية, فضلاً على اتصالها بتلك البلدان [7].

(1) شوقي ضيف, الرحلات, ط4, دار المعارف, (القاهرة, 1956م) , ص 10, 12, 78.
(2) عمار جحيدر, طرق الحج جسور للتواصل الحضاري بين الشعوب, أعمال ندوة طرق الحج بالقاهرة 2002م, منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ايبيسسكو, (القاهرة, 2007م), ص 30.
(3) محمد بن سعود الحمد, موسوعة الرحلات العربية والمعربة المخطوطة والمطبوعة معجم ببليوغرافي, دار الكتب والوثائق القومية, (القاهرة, 2007م), ص 11.
(4) محمد بن سعود الحمد , المرجع السابق, ص 11. كذلك: نقولا زيادة, الجغرافية والرحلات عند العرب, الشركة العامة للكتاب, (بيروت, 1987م), ص 12.
(5) علي إبراهيم كردي, أدب الرّحل في المغرب والأندلس, منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب,(دمشق, 2013م), ص 5.
(6) محمد بن سعود الحمد , المرجع السابق, ص 12.
(7) شوقي ضيف, المرجع السابق, ص 10.

ثانياً- أهم الرّحالة:

نذكر أهم رحالة معاصرين في القرن السادس عشر الميلادي, وكان لهم دور كبير في وصف أفريقيا عامةً, والشمال الأفريقي خاصةً , تم تخصص نموذجين فقط للمقارنة في تناولهما للمعلومات :

1- ليون الأفريقي (1489- 1554م):

عاش في القرن العاشر الهجري أي القرن السادس عشر الميلادي جغرافياً ورحالة, أتقن عدة لُغات اللاتينية والإيطالية فضلاً عن الإسبانية والعبرية والعربية, تُرجمت رحلته إلى الإيطالية, اسمه هو الحسن بن علي بن محمد الوزان الزياتي, مسلم مسلم ولد في غرناطة هناك تضارب في تاريخ مولده فلم يتم تحديد (تحديده) بدقة 1489- 1495م, من لقبه يتضح بأن أحد أجداده امتهن وظيفة في مصلحة الموازين العامة, بعد استيلاء الملكين الكاثوليكيين فرديناند الخامس وإيزابيلا على الأندلس, وطرد المسلمين منها لجأت أسرته إلى فاس, درس بجامعة القرويين الإسلامية, اشتغل اشتغل عدة وظائف, قام بالترحال وهو شاب يافع , في سن السابعة عشر ذهب إلى القسطنطينية والمشرق العربي ثم تمبكتو, أصبح سفيراً للأخيرة لدى السلطان اسكيا محمد تورة[1].

أمضى معظم عامي 1514-1515م في المغرب, له دور الوسيط للتفاوض بين الحكومة الأسبانية والأخوين للجهاد البحري(القراصنة), وفي النصف الثاني من شهر سبتمبر تابع رحلته باتجاه تونس ماراً بمسيلة في منطقة الحضنة الجزائرية, وفي شهر يونيو 1517م تواجد في مصر وتحديداً مدينة الرشيد[2] , وهو العام الذي يمثل مرحلة مهمة في تاريخ المنطقة يتزامن بفتح السلطان العثماني سليم الأول لمصر(3), وعاد من مصر إلى المغرب بحراً وتوقف في مدينة طرابلس عام 1518م[4].

تم أسره بعد توقف سفينته في جزيرة جربة على يد قراصنة صقلية, واقتيد إلى نابولي ثم إلى روما بإيطاليا حيث أهدوه مع زرافة إلى البابا ليون العاشر[5], وتم تنصيره على يد أيدي ثلاث أساقفة في قصر سانتانج, وأقام فيه إقامة جبرية لمدة عام كامل, على إثرها تعميده على يد البابا نفسه في كنيسة القديس بطرس في روما 6يناير 1520م, تعددت أسماؤه إلى أن عُرف لاحقاً باسم ليون الأفريقي استناداً إلى ما اشتهر به بين معاصريه[6]. هنا سؤال يطرح نفسه لماذا تم تنصيره والاهتمام به لهذه الدرجة؟؟

.

2- مارمول كاربخال أو كرفاخال (1520 – 1600م) :

(1) الحسن بن محمد الوزان الزياتي , وصف إفريقيا, تر: عبدالرحمن حميدة, راجعه: علي عبدالواحد, الهيئة المصرية العامة للكتاب, (مصر, 2005م), ص 20.
(2) المصدر نفسه , ص 21 – 22.
(3) أغناطيوس يوليانوفاش كراتشكو فسكي, تاريخ الأدب الجغرافي العربي, نقله للعربية: صلاح الدين عثمان هاشم, مراجعة: إيغور بليياف, اختارته الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية, (القاهرة, 1957م), قسم 1, ص 541.
(4) الحسن بن محمد الوزان الزياتي, المصدر السابق, ص 22.
(5) أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي, المصدر السابق, ص 541.
(6) الحسن بن محمد الوزان الزياتي, المصدر السابق, ص 23.

سائح ومؤرخ وعسكري إسباني, , ولد في 1520م بغرناطة أوائل القرن السادس عشر الميلادي, اسمه لويس دل مارمول كربخال, اشتغل ضابطاً في جيش الإمبراطور شارلمان الخامس, وعاش بشمال إفريقيا وطال مقامه ما يقارب من اثنين وعشرين عاماً , أُسر خلالها من طرف الأشراف السعديون وبقى عندهم أسيراً سبعة أعوام وثمانية أشهر, على إثرها أتقن اللغة العربية والأمازيغية التي تمكن بواسطتها من جمع معلومات تاريخية وجغرافية عن هذه البلاد, تزامن وجوده في شمال إفريقيا دخول العثمانيين لليبيا وتونس والجزائر, ألف كتابه بعد فترة من الزمن بعد أن تحصل على حريته من الأسر وتحديداً في 1573م, وقام بترجمته إلى اللغة الفرنسية ونشره في ثلاثة أجزاء[1].

يُعد كتاب إفريقيا الذي بصدد سرد بعض منه لاحقاً في هذا البحث بأنه من المؤلفات المهمة أيضاً في تاريخ ليبيا الحديث, بعد الإطلاع عليه هو امتداد لوصف إفريقيا حيث تناول فيه القارة الإفريقية عامةً وشمالها خاصةً ونقل منه فصولاً حرفياً, فضلاً عن تخصص المغرب الأقصى, من المآخذ عليه هو تعصبه للمسيحية, واعتمد في استقاء معلوماته للكتاب على مكتبات الأديرة وحوليات القساوسة[2].

ثالثاً- وصف مدينة طرابلس:

نستعرض هنا بشيء من المقارنة بين الرحلتين حول وصف طرابلس, والتي تم الاعتماد فيها على مؤلفاتهما, نوجز بعض نقاط الاتفاق والاختلاف, قُسم هذا المحور إلى أربع فقرات رئيسة. نوضحها في الآتي:

1- **سياسياً**: تجدر الإشارة هنا إلى أن ليون ومارمول ركزا في تلك الفترة على الصراعات السياسية التي تمر بها تونس وطرابلس, أوضحا بأن تلك الفترة تمر بصراعات سياسية لأجل السلطة بين ملوك وأبناء الحكم الحفصي وبنو ثابت, يوضحان كيف كانت أوضاع المنطقة قُبيل دخول الأسبان إليها, ركزا أيضاً في هذه الفقرة بشيء من التفصيل حول أوضاع طرابلس تحت الاحتلال الأجنبي, إلا أن مارمول زاد في وصف طرابلس ما بعد ليون, هذا الأخير أوضح كل ذلك في القسم الخامس من كتابه تحت عنوان مملكة بجاية وتونس, جعل طرابلس من ضمنها, بينما الأخر ذكرها في الكتاب السادس يعنوان مملكة تونس, نضع هنا نقاط مهمة في سرد تلك الأحداث:

(1) سالم بوتدارة, الصحراء الجزائرية في كتابات مارمول كاربخال, مجلة الحوار المتوسطي , جامعة سيدي بلعباس, (الجزائر, 2014م), العدد 7, ص 299-300.

(2) مارمول كربخال, إفريقيا, تر: محمد حجي وآخرون, دار المعرفة, (الرباط, 1988-1989م), ج3, د.ص.

- **وصف الحملة الأسبانية يتمثل في:** قد اتفقا في سرد المعلومات التاريخية عليها ونقلها من بداية إنزالها لشمال أفريقيا؛ حيث يذكر ليون بأن الملك الكاثوليكي فرديناند أرسل أسطولاً لها بقيادة الكونت بيير نافارو, ويوضح ذلك في الهامش رقم 192 بأن الأخير بعد احتلاله مدينة بجاية ونتيجة لانتشار مرض الطاعون بها ألزمه إرسال حملة لطرابلس وهو على رأسها, واصفاً تعدادها بخمسة عشر ألف رجل أي جندي, وخمسين سفينة, قصد جزيرة صقلية لأجل طلب المئونة, فتوجه إلى طرابلس 24 يوليو تم السيطرة عليها مثلما يسرد لنا في 25يوليو, بأنهم تعرضوا لمقاومة عنيفة من الأهالي الذين كانوا على أُهبة الاستعداد في الدفاع عليها, ومن نتائج الحملة مثلما وضح خسائر جسيمة, وهدمت المدينة انتقاماً وقد خُربت على أيدي النصارى بعد سقوطها[1], في ذات السياق يذكر مارمول بتفصيل أوسع على نزول القوات الأسبانية لميناء طرابلس, وقصفها بشدة بالمدمرات البحرية, منعطفًا حول تقسم القائد نافارو قواته إلى أربع فرق لملاحقة الأهالي الذين فرّوا من هول المدافع[2], يواصل ليون أنه في اليوم التالي أُخذت المدينة وسقط كل أهلها أسرى على حسب تعبيره؟؟ واقتيد الأمير يقصد شيخ المدينة عبدالله بن شرف وأحد أصهاره إلى مسينا حيث أمضوا في السجن بضع سنوات ثم نقلوا إلى بالرمو, وهناك أعاد الإمبراطور شارلمان حُريتهما وعادا إلى طرابلس بمحض إرادتهما, الذي أخذ في تعمير البلاد بعد عودته وبإذن من الإمبراطور، وهنا اتفق الرحالة على نفس المعلومة, ركز ليون على أن الأسبان ((قاموا بتحصين القلعة بسور متين مع تجهيزه بمدفعية ضخمة كما رأينا في عام 1518م, واستناداً إلى ما سمعته منذ وقت قريب)) [3].

يختتمان هذه الفقرة دخول فرسان مالطا وتنازل الأسبان عن طرابلس لهم, يتطرق إلى أن الأتراك قاموا بطردهم من جزيرة رودس 1523م, فأعطاهم الإمبراطور شارلمان جزيرة مالطا 1528م وعهد إليهم طرابلس حيث أصبح أحد فرسانهم حاكماً عليها, يواصل حديثه عن دخول الأتراك بقيادة سنان باشا لشمال إفريقيا وتحريرها من سيطرتهم رغم دفاعهم المستميت وإنهائه في 8أغسطس 1551م[4].

2- **اقتصادياً:** يوضحان بأنها كانت تتمتع بازدهار تجاري, لأنها مُتاخمة لنوميديا أي الجزائر وتونس, كما أنهما يُبرزان أهميتها هذه بأنها تنفرد بين جميع المواقع الحضرية الموجودة على الشواطئ الممتدة بينها وبين مدينة الإسكندرية, فضلاً على أنها قريبة من جزر مالطا وصقلية يوضح ليون هنا بدور التجار ورسو سفن البنادقة في الماضي بها, الذين كانوا يقصدونها كل عام [5].

(1) الحسن بن محمد الوزان الزياتي, المصدر السابق, ص 473- 474. لمزيد من افطلاع يُنظر: أحمد بك النائب الأنصاري, المصدر السابق, ص 41.
(2) مارمول كاربخال, المصدر السابق, ص 122.
(3) الحسن بن محمد الوزان الزياتي, المصدر السابق, ص 473- 474. كذلك: مارمول كاربخال, المصدر السابق, ص 122.
(4) الحسن بن محمد الوزان الزياتي, المصدر السابق, ص 473- 474. كذلك: مارمول كاربخال, المصدر السابق, ص 122.
(5) المصدر نفسه, ص 470 – 471. كذلك: المصدر نفسه, ص 121 - 122.

هنا يوجد تناقض بينهما حيث إن ليون يوضح أهميتها الاقتصادية وازدهارها ويناقض نفسه بأن السكان فقراء استنادًا إلى قوله:((ويستعمل السكان لحماً رديئاً جداً (يُقصد به عن المجتمع الليبي آنذاك وليومنا هذا بالقديد لحم يُجفف في الهواء وأشعة الشمس), مصنوعاً من بازين الشعير لأن الأقوات التي تُجلب للمدينة لا تكفي مطلقاً لمعيشة يوم واحد فقط, يعتبر الفلاح غنياً إذا استطاع أن يدخر صاعاً من الحب أو اثنين لمئونته...))[1].

يذكر مارمول في نفس السياق بأن ما يُميز طرابلس الثروة الموجود بها لأنها غنية مقارنة بمناطق الجوار, بسبب نشاطها التجاري الذي ساهم في ذلك, مستدلاً بوجود مائة وخمسين نولاً للنسيج لصناعة الثياب الحريرية, وملابس البّحارة وأقمشة مختلفة, فضلاً عن بيع أنواع مختلفة من التوابل والعطور, وبأن أحواضها البحرية مجهزة لإصلاح السفن وتجارتها, كل هذا يؤكد أهميتها الاقتصادية وتمتعها بنشاط كبير قبل سيطرة الأسبان الذين شّلوا حركة التجارة فيها لاحقاً, أكد بأن الكونت نافارو: ((كان يحجز سفناً تجارية تركية تحمل بضائع نفيسة وغنية, وفي طرابلس خطر بباله أن يقوم بغزو جربة التي كانت غزواً سبب كارثة عليهم)) [2].

3- **جغرافياً:** وصفاها بأنها مدينة تقع في سهل رملي, وكانت قديمة على رُقعة كبيرة من الأراضي تتقدم بعيداً في اتجاه الشمال, وغطت مع توالي العصور بالمياه, توجد بها واحات وافرة من النخيل, إلا أن أرضها لا تنتج الشعير والقمح, لذا الخبز فيها يُباع بثمن غالٍ , حسب سردهما يُعللان ذلك بأنه نتيجة لانعدام الآبار والعيون, وأهلها يعتمدون في السقاية على مياه الأمطار التي أصبحت تتجمع في الصهاريج خزانات[3]

استناداً لما سبق حاولنا إثراء تلك المعلومات ببعض المصادر التي استقت مادتها التاريخية من تقارير وصفت طرابلس لاحقاً, حيث يذكر أحد أفراد الحملة الأسبانية يُرف (يعرف)باسم باتيستينو دي طونيس واصفاً طرابلس : ((مدينة طرابلس مربعة الشكل, ويزيد محيطها على ميل واحد)) [4].

ذُكر في معجم البلدان الليبية واستناداً لأحد تقارير وفد فرسان القديس يوحنا, بأنها: ((طرابلس صافية الأديم, هواؤها صحي, وهي غير معرضة للأمراض السارية, ويبلغ محيط سورها 3728 خطوة, ثلثاه على البحر والثلث الأخر يشرف على البر.....)) [5].

4- **مدنها:** المتتبع للرحلتين يجد بأنهما كانتا تسيران على الخُطى نفسها في وصف المدن والتقسيم, تم اختيار بعض ضواحي طرابلس مثلما أشارا إليها:

(1) الحسن بن محمد الوزان الزناتي, المصدر السابق, ص 470.
(2) مارمول كاربخال, المصدر السابق, ص 122.
(3) الحسن بن محمد الوزان, المصدر السابق, ص 470. كذلك: مارمول كاربخال, المصدر السابق, ص 120-121.
(4) عمر الباروني, . الأسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس, مطبعة ماجي,(طرابلس, 1952م), ص 37.
(5) الطاهر أحمد الزاوي, معجم البلدان الليبية, مكتبة النور,(طرابلس, 1968م), ص 26.

- جنزور: أوضح ليون بأن السكان المحليين يلفظونها بـ(زنزور) قرية قريبة من البحر على مسافة اثني عشر ميلاً من طرابلس, خصيبة جداً بالتمور والرمان والسفرجل, كانوا يمتهنون التجارة ويبيعون الفواكه للنصارى بعد استيلائهم على المنطقة, يضيف مارمول بأنها مدينة ساحلية توجد شرق طرابلس, ويتفق في أهميتها الزراعية والتجارة مع ليون[1], هكذا ورد النص في رحلته, والصواب هو أنها تقع غربي مدينة طرابلس بنحو 12كم [2].
- تاجوراء: تاجوره هي منطقة ريفية على مسافة ثلاثة عشر ميلاً تقريباً شرقي طرابلس, فيها بضع قُرى من حدائق مزروعة بالنخيل وأشجار مثمرة أخرى, هذه المنطقة أصبحت مزدهرة جداً بعد سقوط طرابلس, نتيجة إلى لجوء أعداد كبيرة من سكان تلك المدينة إليها[3], كانت مركزاً لحكومة خير الدين بربروسا الذي حارب فرسان القديس يوحنا الذين احتلوا طرابلس[4].
- مسلاته : إقليم على حافة البحر المتوسط على مسافة خمسة وثلاثين ميلاً من طرابلس, يوجد بها الكثير من النخيل وشجر الزيتون , وسكانها يعيشون بحرية حس قوله لأنهم اعتادوا على اختيار رئيس من بينهم ليدير شؤونها في السلم والحرب[5], تقع في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس بنحو 125كم[6].

5- **عمرانياً:** ترتبط العمارة بالمكان فضلاً عن الهوية والسكان, لأنها ظاهرة تخطيط وتعمير وتشييد, وما تشهده من تطورات على مختلف العصور, وهذا ما حدث للمدينة بحكم موقعها الاستراتيجي, وتوافد الأمم إليها, قام الرحالان بإبراز معالمها كُل وفق ما رآه.

هذا ما ورد عند ليون: (المدينة مطوقة بأسوار عالية وجميلة لكنها ليست قوية, بيوتها جميلة بالقياس إلى بيوت تونس,... بها قديماً جوامع كثيرة وعدة مدارس ومستشفيات...)[7].

أما مارمول يتفق مع الأول بخصوص أسوارها, (تميزت بوجود معاهد وفنادق عديدة, ومساحاتها العامة وأزقتها وشوارعها جعلت منها مدينة مُنسقة التعمير, تفوق تونس, ...). يُضيف بعد تدمير الأسبان لها (لم يبق منها سوى القصر أو القلعة التي قاموا بالتحصن فيها, ورمموا قصراً صغيراً آخر على مقربة من الميناء, وتركوا فيه حامية أو فرقة من الرماة) [8].

(1) الحسن بن محمد الوزان الزياتي, المصدر السابق, ص 481. كذلك: مارمو كربخال, المصدر السابق, ص 127.
(2) الطاهر أحمد الزاوي, المصدر السابق, ص 171.
(3) الحسن بن محمد الوزان الزياتي, المصدر السابق, ص 482.
(4) الطاهر أحمد الزاوي, المصدر السابق, ص 75.
(5) الحسن بن محمد الوزان الزياتي , المصدر السابق, ص 482.
(6) الطاهر أحمد الزاوي, المصدر السابق, ص 315.
(7) الحسن بن محمد الوزان الزياتي, المصدر السابق, ص 469, 470.
(8) مارمول كربخال , المصدر السابق, ص 120- 121-122.

وفي المقابل دعتنا الحاجة إلى توضيح ذلك من بعض المصادر والمراجع التي تناولت الحقبة الزمنية لتاريخ ليبيا الحديث عامةً, وتاريخ طرابلس خاصةً في ظل الاحتلال الأسباني وفرسان مالطا, حيث إن الأسبان قاموا بتحصين المدينة, وقصرها وميناءها, ووضعوا المدافع الكبيرة على الحصون لخوفهم من هجمات العثمانيين, أقاموا البرج الأسباني في باب البحر لحراسة المدينة من الجهتين الشمالية والغربية, بنوا برج المندريك عند مدخل الميناء حيث توجد منارة طرابلس, وتم وصف القصر بأنه عبارة عن جزيرة يحيط بها ماء من جميع الجهات[1].

البرج عُرف باسم القديس بطرس, وكان بالمدينة أربعة أبواب, وعلى كل منها أبراج عالية وحصينة, الباب الأول- باب زناته المسمى اليوم الباب الجديد, الباب الثاني- باب البحر في الشمال الشرقي من المدينة من قوس ماركوس أورويليوس جهة مسجد سيدي عبد الوهاب, وسُمي بذلك لأنه يُجيز للبحر والميناء, الباب الثالث- بابان إحداهما خارجها واقع في أول سوق المشير اليوم, والأخر في نهاية السوق قرب برج الساعة التركية التي بناها علي باشا في العهد العثماني الثاني ويُسمى باب هوارة, أما الباب الرابع / باب العرب نحو الجنوب وأطلق عليه الأسبان باب النصر ويُعتقد بأنه كان مفتوحاً حيث باب الحرية الذي فتحته الحكومة العثمانية[2].

والجدير بالذكر أن ما تم طرحة من أحداث تاريخية ووصفها وفق الرحلتين يؤكد بأن هناك بعض التناقض خاصة عند ليون الذي يصف طرابلس ذات أهمية اقتصادية وتتمتع بثروات مقارنة بدول الجوار, وأحيان أخرى يصفها بالفقر ووجود لصوص وجُهال, أي أنه يريدنا أن نصل إلى أن المدينة تتمتع بأرض خصبة وبها ثروات هائلة لكن لم يُحسن استغلالها من قبل سكانها, إلا بعد عودة أميرها الذي أُسر وأعاد اعمارها في ظل وجود الاحتلال الإسباني وبمعونتهم, وكأنه هو المتعصب وليس مارمول الذي وصف المدينة بدقة في العديد من المواضع .

الخاتمـــــــــة

وقد توصلنا للنتائج التالية:

1- انطلاقاً مما جاء في مُجمل الرّحلات وخاصة في القرن السادس عشر الميلادي بأن مدينة طرابلس الغرب على مر الأزمنة والعصور التاريخية كانت عاصمة نشطة في جميع المجالات الحيوية ومن المدن المهمة استراتيجياً على ساحل البحر المتوسط , فضرً عن تمتعهما بخيرات وثروات وافرة.

(1) حسن سليمان محمود, المرجع السابق, ص 163-164.
(2) عمر الباروني, المرجع السابق, ص 72-73-74. كذلك : شارل فيرو, المصدر السابق, ص 77-78.

2- ساهم معاصرو الاحتلال الاسباني بكتابهما في إثراء المكاتب , فكانت مصدراً مهماً في التاريخ وعلم الجغرافيا, يتجلى لنا بأن الرحلتين لا يمكن اعتبارهما فناً للقصّص فقط, وإنما سرداً تاريخياً ووصفاً للأدب الجغرافي, لاستناد عدد من المؤرخين من بعدهم عليهما أمثال شارل فيرو, على الرغم من أن بعض الرحلات يستخدم رواتها الخيال فيمتزج فيها الواقع بالخيال والحقيقة والأسطورة.
3- التركيز على سوء الأوضاع السياسية أوائل القرن السادس عشر الميلادي المتمثل في الصراع الحفصي وبنو ثابت, وتمسكهم بالحكم على ليبيا وتونس, مما أدى إلى صراع على السلطة واستنجاد أحمد الحفصي بتونس بالأسبان التي اعتبروها حُجة لأجل التدخل في شؤون مدن شمال أفريقيا.
4- أوضحت الأهمية الاقتصادية للمدينة التي مهدت بدخول الاحتلال إليها وجعلها إحدى القواعد والمحطة التجارية لها.
5- أثارت سياسة الاحتلال وضرب المدينة بالمدافع حفيظة السكان لأجل الدفاع عنها وظهور حركة الجهاد البحري في شمال أفريقيا, ودعمها للمناطق التي تحت الاحتلال.

6- توضيح أن المدينة كانت تتمتع بمعالم حضارية مهمة رغم ضعف عمرانها آنذاك, وبأن سكانها كانوا متحضرين منذ ذلك الوقت وامتهانهم عدة مهن كالحياكة والنسيج, واعتمادهم على بناء الصهاريج الخزانات للاحتفاظ بماء الأمطار. لذا نجد الرحلتين ركزتا على الجانب المعماري , لوصف المدينة ومعالمها.

التوصيات:

- أوصي الباحثين والمهتمين بالتاريخ الحديث والمعاصر الخوض في هذا المضمار, والقيام بدراسات مستقلة وجادة حول الرّحلات في القرن السادس عشر الميلادي تحديداً نظراً لندرة المعلومات حول هذه الحقبة التاريخية المهمة , لأنه لُوحظ في تاريخ الحديث والمعاصر وخاصة في بلدي(ليبيا) عدم وجود بحوث أو دراسات مستقلة تختص بدراسة الرحلات في الفترة الحديثة.

قائمة المصادر والمرجع

أولاً- المصادر:

- أحمد بن الحسين النائب الأنصاري، **نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان**، تقديم وتعليق: محمد زينهم محمد عزب, دار الفرجاني للنشر والتوزيع ,(طرابلس، 1994م) .

- أتوري روسي, **طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا**, تر: خليفة محمد التليسي, المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان, (طرابلس, 1969م) .
- أغناطيوس يوليانوفاش كراتشكو فسكي, **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**, نقله للعربية: صلاح الدين عثمان هاشم, مراجعة: إيغور بليف, اختارته الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية, (القاهرة, 1957م), قسم 1.
- الحسن بن محمد الوزان الزياتي , **وصف إفريقيا**, تر: عبدالرحمن حميدة, راجعه: علي عبدالواحد, الهيئة المصرية العامة للكتاب, (مصر, 2005م).
- شارل فيرو، **الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي**، تر:- محمد عبد الكريم الوافي، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، (طرابلس، 1973م) .
- مارمول كرنجال, **أفريقـــــــــيا**, تر: محمد حجي وأخرون, دار المعرفة للنشر والتوزيع, (الرباط, 1988-1989م), ج3.
- محمد بازامة, ليبيا في عشرين سنة من حكم الأسبان 1510-1530م, مكتبة الفرجاني, (طرابلس, د.ت).
- عمر الباروني, . **الأسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس**, مطبعة ماجي, (طرابلس, 1952م).

ثانياً- المراجـــــع:

1- المراجع العربية :

- حسن سليمان محمود، **ليبيا بين الماضي والحاضر**, مؤسسة سجل العرب، (القاهرة، 1962م).
- خليفة التليسي , **حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب و الأجانب** , الدار العربية ,(ليبيا , تونس , 1985م) .
- علي إبراهيم كردي, **أدب الرّحل في المغرب والأندلس**, منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب,(دمشق, 2013م).
- راسم رشدي, **طرابلس الغرب الماضي والحاضر**, دار النيل للطباعة, (القاهرة , 1953م) .
- عبد العزيز طريح شرف , **جغرافية ليبيا** , منشأة المعارف, (الإسكندرية , 1971م).
- نقولا زيادة, **الجغرافية والرحلات عند العرب**, الشركة العامة للكتاب, (بيروت, 1987م)
- شوقي ضيف, **الرحلات**, ط4, دار المعارف, (القاهرة, 1956م)
- فؤاد قنديل, **أدب الرحلة في التراث العربي**, الدار العربية للكتاب,(القاهرة, 2002م).

2- المراجع المترجمة :

- جـان كلـود زليتـز, **طـرابلس ملتقـى أوروبـا وبلـدان وسـط أفريقيـا1500-1795م**, تـر: جـاد الله عـزوز الطلحـي, الدارالجماهيريـة للنشـر والتوزيـع والإعلان, (مصراتة, 2001م).

ثالثاً : الرسائل العلمية:

- سمير عبدالرسول عبدالله العبيدي, **طرابلس الغرب أثناء احتلال الأسبان وفرسان القديس يوحنا 1510-1551م**, اطروحة دكتوراه غير منشورة, كلية الآداب, جامعة بغداد, 2003م.

رابعاً : المعاجم:

- الطـاهر أحمـد الـزاوي, **معجـم البلـدان الليبيـة**, مكتبـة النـور, طـرابلس, 1968م).
- بن منظور, **لسان العرب**, دار صادر,(بيروت 1414هـ 1993م), مج 1.
- محمد بن سعود الحمد, **موسوعة الرحلات العربية والمعربة المخطوطة والمطبوعة معجم ببليوغرافي**, دار الكتب والوثائق القومية, (القاهرة, 2007م).

خامساً: المجلات والمقالات :

- إبـراهيم عـلاء الـدين, **أوضـاع ليبيـا مـا بـين الاحـتلال الأسـباني والنجـدة العثمانية 1510-1551م**, مجلة دراسات تاريخية , جامعة تشرين, العددان 127-128, 2014م.
- سـالم بوتـدارة, **الصـحراء الجزائريـة فـي كتابـات مـارمول كاربخـال**, مجلـة الحوار المتوسطي , جامعة سيدي بلعباس, (الجزائر, 2014م), العدد 7.
- عمار جحيدر, **طرق الحج جسور للتواصل الحضاري بين الشعوب**, أعمال ندوة طرق الحج بالقاهرة 2002م, منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ايبيسسكو, (القاهرة, 2007م)